

الفكاكة في شعر محمد مصطفى حمام

كان الشاعر محمد مصطفى حمام (١٩٠٦-١٩٦٤ م) نمطاً فريداً بين شعراء عصره لما كانت تتميز به شخصيته من تفرد لم يعرفه معاصروه في شاعر غيره ؛ فقد كان مثلاً نادراً يجمع بين السلوك القويم ، والخلق الحسن ، وخفة الظل ، والثقافة الرفيعة .

وقد ولد شاعرنا في مدينة فارسكور بمحافظة دمياط عام ١٩٠٦م وفقد أباه وهو في الرابعة من عمره فكفله جده لأمه وألحقه بالتعليم الديني في الكتاب فحفظ القرآن الكريم ثم انتقل إلى التعليم الابتدائي في بلده ومنه إلى المدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة . ولم يستمر فيها طويلاً حيث اندلعت ثورة ١٩١٩م وأضرب تلاميذ المدارس وخرج شاعرنا من مدرسته محمولاً على أكتاف زملائه وهو يقود المظاهرات المؤيدة للثورة ويفتق في ابتكار صيغ الهتاف بصوت رخم قوي ، ويُلهب مشاعر الجماهير بحماسة وتدفعه وحسن إلقاءه .

ثم انتهت المظاهرات وانتهى معها أمل شاعرنا في التعليم مرة أخرى فاتصل ببعض الصحف والمجلات ينشر فيها أشعاره وأزجاله ، وتتعاقب عليه السنون في العاصمة ويسطع نجمه في المحافل الأدبية ، شاعراً ظريفاً ، وراويّة فكهاً ويحفظ الطرائف والأوابد من الشعر ، وفي مصر حينئذ كبراء ووزراء يسمعون ويتذوقون الشعر ويطربون له ففتحوا له الطريق إلى العمل في دواوين الحكومة وأتاحت له وظيفته الصغيرة ما يسد الرمق وتلبية احتياجاته الأساسية ولكنه كان

مزوجاً تزوج ثلاثاً وأنجب عشرة من الأبناء مما زاد أعباءه وفقره ، بيد أنه كان يُروِّضُ الفقر ترويضاً – كما يقول عنه صديقه الشاعر طاهر أبو فاشا رحمه الله في كتابه عن الذين أدركتهم حرفة الأدب – وكان يعايش الفقر راضياً ما دام في يديه القليل واتخذ من شعره وسيلة للتكسب والرزق ، فكلما مسته الحاجة نظم البيتين أو الأبيات يُضَمِّنُها حاجته ، ويوجهها إلى مَنْ يقصده من هؤلاء فتكون طرافة الطلب خليقة بتحقيق المطلوب .

وكانت فيه أريحية وخصال هي خصال المؤمنين فقد كان مأمون الغيب لا يذكر أحداً بسوء حتى أهل السوء ، فلم يكن ساخطاً أو ناقماً أو مغروراً حتى في أحلك أوقات الضنك وكان كما قال في قصيدة له :

علمتني الحياة أن أتلقَى كل ألوانها رضاءً وقبولاً
والذي أُهْمَ الرضا لا تراه أبدأ الدهر حاسداً أو عدولاً

ويروي الشاعر الناقد كمال النجمي قصة قصيدة فكاهية لحمام تعكس معاناته وكان قد رواها لبعض أصدقائه في جلسة في نادي نقابة الصحفيين بالقاهرة فقال حمام لجلسائه :

لم يعد يحز في نفسي شيء من متاعب الدنيا إلا معاملة سائقي التاكسي لي... فقد عرفوني جميعاً ، وعرفوا أنني أركب التاكسي ثم أعتذر عن دفع الأجرة فأصبحوا لا يقفون إذا أشرت إليهم بالوقوف... وإذا رأوني مقبلاً إلى موقفهم تحركوا بسياراتهم وهربوا مني !!

ثم ضحك حمام ضحكته التي كانت تصدر عنه صافية ذات رنين ، كأنها صادرة عن قلب خالٍ من الهموم .. وقال :

لقد دخل سائقو التاكسي التاريخ ، لأنني ذكرتهم في أبيات نظمتهما اليوم .. وكانت أبياتاً هزلية يعارض بها قصيدة شوقي الرائعة التي مطلعها :

قال حمام :

أما العتاب فبالأحبة أخلق	والحب يصلح بالعتاب ويصدق
أما الفلوس فبالأحبة أخلق	والقرش أقرب للفضاد وألصق
لم يبق في جيبى سوى تعريفه	والله يمنح من يشاء ويرزق
لما قصدت البنك أطلب سلفة	قالوا : ابتعد فالبنك لا يتصدق
هل من كريم أرتجيه لورطتي	سمح اليدين إلى المكارم يسبق
فإذا سألت بريزة من فيضه	ألفيت بحر برائز يتدفق
شاورت للتاكسي- أريد ركوبه	فمضى- يبرطع كالحمار وينهق
السائقون دروا بإفلاسي فما	يقفون لي وأنا أشير وأزعق

ويختم حمام قصيدته وهو يضحك منشداً في إثرها قصيدة أخرى عن

القروض وأهميتها لديه .. يقول :

قد درأنا الإفلاس بالتسليف	واشترينا به غموس الرغيف
لا نبالي إذا القروض توالى	كبسة الصيف أو هجوم الخريف

وكان له موهبة أخرى فهو يجيد تقليد الأصوات تقليداً متقناً وبارعاً فهو يحاكي الصوت ثم يحاكي لوازم صاحبه عند الكلام ، فيُخيل إلى المستمع أنه يسمع صوت صاحب الصوت نفسه ، وله في ذلك مهارات عجيبة ومقالب طريفة ، جعلت منه الجليس الأنيس فاكهة السامر وريحانة المجالس .

ومما يُروى من مقالبه أنه عندما وقعت خصومة بين الأستاذين العقاد وتوفيق دياب الصحفي اللامع وصاحب جريدة الجهاد ، اتصل " حمام " هاتفياً بالأستاذ العقاد وبادأه بصوت الأستاذ توفيق دياب ولوازمه في كلامه ولطفه وعاتبه ومازال به حتى أبرأ صدره من الغضب وضرب له موعداً للقاء ، ثم اتصل هاتفياً بالأستاذ توفيق دياب وبادأه بصوت العقاد وبلوازمه في كلامه فعاتبه ومازال به حتى صفى ما بنفسه وضرب له موعداً للقاء ، ويكون اللقاء ويأتي الحديث عن الكلمات المتبادلة بينهما هاتفياً ، فينكر كل منهما أنه اتصل بالآخر وينكشف " المقلب " ويعرفان أنه من محمد مصطفى حمام .

وقد روى أنيس منصور في كتابه عن صالون العقاد موقفاً طريفاً يدل على خفة ظل شاعرنا وسرعة بديهته ، ففي إحدى ندوات الأستاذ العقاد طُلب منه أن يُقلد طه حسين في طريقه حديثه : فأخرج نظارة سوداء ووضعها على عينيه ومال إلى الأمام ثم قال :

إذا كنتُ راكباً حماراً ، فأنا راكبٌ والحمارُ مركوب ، ولما كان المركوب هو الذي تلبسه في القدم ولما كان الحمار لا يلبس في القدم ، فالحمار ليس مركوباً ، ولما كنتُ راكباً ، ولم يكن الحمارُ مركوباً فلا أنا راكبٌ ولا الحمارُ مركوب ، ولا عرف

أبو العلاء هذا النوع من المراكيب... إذا فأئى الأنواع كانت شائعة على أيام أبي العلاء؟!؟

ويلاحظ هنا لوازم طه حسين في أسلوبه فهو يميل إلى التكرار ولا يملُّ من ذكر أبي العلاء المعريّ، وفي نفس المجلس طُلب منه أن يُقلد العقاد في طريقة حديثه فاعتدل وجلس جلسةً العقاد ثم قال :

" فرأس الشيوعي مثل القوالب الخشبية التي يضعونها في الأحذية لتجعل الحذاء مشدوداً فإذا أصبحت مشدودة أخرجوا منها القوالب ووضع الشيوعيون رؤوسهم فيها ، وليس غريباً أن الشيوعي "تروتسكي" عندما ألقوا القبض عليه أمسك حذاء في يده وهددهم ، إنه لم يهددهم إنما الحذاء أحد الشعارات الشيوعية ولما كان الشيوعيون يمشون على رؤوسهم أي على عقولهم أي على أفكارهم فرؤوسهم تحت وأرجلهم فوق ، ولما كان الشيوعيون حريصين على رأس الفكر وليس رأس المال فإنهم يضعون رؤوسهم في أحذية فلسفية " .

ويلاحظ هنا براعته في اختيار موضوع تقليده للعقاد حيث اختار الشيوعية كمذهب ضال تنبأ العقاد بسقوطه ودكّ أركانه بفكر ثاقب وبصيرة نافذة .

وفن الهجاء مظهر من مظاهر الفكاة في شعرنا العربي ، ولكنه عند محمد مصطفى حمام نلاحظ أن ما كتبه في الهجاء أقرب إلى المداعبة والمعاينة منه إلى سوء القول وفُحشه ، فقد كان له صديق يسمى " نجاتي " وكان أديباً ومطرباً ولكن شاعرنا كان يستنكر صوته ولا يعترف به مطرباً فقال يهجوهُ :

ألا قبحاً لصوتك يا نجاتي لحق أنت إحدى المزعجات
 فلو أني استعنت على عدو بصوتك لاسترحت من العداة
 ولو غنيّت في عرس بهيج لصيرت الرواقص لاطمات

وتنعكس ثقافة حمام الدينية على إبداعه الفني ، فهو يتخذ من بعض أحكام
 الشريعة الخاصة بـ (الصوت) وسيلة للنكير على صديقه ذاك صاحب الصوت
 المزعج ، فيقول هازئاً به إنه لو اختير مؤذناً يدعو الناس إلى الصلاة لكان نكران
 صوته أكبر وسيلة للتنفير لا للدعوة . ولو مكث بجوار المسجد الحرام بمكة يدعو الناس
 إلى الحج ، لأعرض المسلمون عن الحج تحاشياً لصوته المنكر ، يقول حمام :

ولو أذنت للصلوات يوماً رددت المسلمين عن الصلاة
 ولو جاورت بيت الله تشدو بصوتك في البقاع الطاهرات
 لقلنا الحج ليس بمستطاع فأبطلت الفريضة يا نجاتي

وشاعرنا حمام لديه طاقة هائلة في السخرية تجعله يرسم صورة لا تنسى لمن
 يسخر منهم ، وسخريته من النوع الذي يمتزج فيه الجد بالهزل امتزاجاً لطيفاً لا
 يكاد يبين .

فمن ذلك قصيدته التي أسماها (مناجاة) وهي غير موجودة في ديوانه
 ولكننا عثرنا عليها في جريدة الوادي العدد الصادر يوم ٣١ أكتوبر عام ١٩٣٤ م ، وهي
 مناجاة بين الوزير والكرسي ، يسخر فيها من أولئك الوزراء الذين ألفت بهم أقدارهم

على كرسي الوزارة فانكبوا على كراسيهم تلك يوسعونها حباً وتقبيلاً يكاد يصل إلى درجة العبادة ، وشاعرنا يشخص الكرسي ويخاطبه على لسان الوزير قائلاً :

تقبلتني - بالرغم منك - نزيلاً فلا ترجُ مني - الدهر - عنك رحيلاً
ولستُ أبالي كنتُ ضيفاً محبباً لنفسك ، أو ضيفاً عليك ثقيلاً

ويمضي الوزير في رحلة توصل طويل يناشد كرسي الوزارة ألا يتخلى عنه ويبحث عن سواه [ومن الجدير بالإشارة هنا أن تلك الحقة كانت حقة تغييرات وزارية ودستورية متسارعة في مصر] ويضع الوزير إلى الكرسي ألا يُشمت خصومه السياسيين الذين يشفي غليلهم أن يروه خارج الوزارة :

نشدتك يا كرسيُّ إلا صحبتني طويلاً ولم تحطب سواي خليلاً
ولم تتبرم بالذي أنت حاملُ فإني لأخشى أن تكون ملولاً
وإني لأخشى أن يُفَرِّقَ بيننا فتورثني حزناً عليك طويلاً
وتشمت بي خصماً يُروِّي نفوسهم هواني ويشفي للصدر غليلاً

ويشتط الخيال بالوزير وهو يناجي كرسيه ، وما إن يصل إلى هذه اللحظة التي يتخيل فيها خروجه ، حتى تنساب في نفسه خيالات مخيفة لا تقف عند حد أولئك الخصم الذين سيسعدهم خروجه ، وإنما سيمتد اثر خروجه إلى حياته الخاصة فتنهار صروح المنى التي رتع فيها زمناً قصيراً ، وينفض عنه أولئك الذين نعموا بعطاياه إبان عزه وجاهه . وتقلب له الدنيا ظهر المجن فتلقي به في مزبلة التاريخ ليجاور أسلافه من المتسلقين المتملقين :

ويرتد ما شيدتُ من صرح عزّتي كثيراً كما يهوى العداة مهيلاً
وينفضّ من حولي أناس تفيأوا ظلالِي وأعطوا من ندايَ جزيلاً
فيومئذ أبكي لجاه مُضيع وجيش من الأعوان صار فلولا
ودنيا حسبناها علينا مقيمة فزالت وما أجدت على فتيلاً

وهناك قصيدة فكاهية أخرى لشاعرنا محمد مصطفى حمام لم يتضمنها ديوانه الذي نشر بعد وفاته ، وعثرنا عليها في مجلة "الاثنين و الدنيا " العدد ١١٦٨ الصادر في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦م ، وهي بعنوان (كن صريحاً) سلك فيها مسلك الشعراء الحلمنتيشيين أمثال بيرم التونسي وحسين شفيق المصري ، الذي كانت عادتهم معارضة قصيدة مشهورة ، مع ذكر مطلعها منسوباً لقائلها ، ثم النسج على منوالها في أغراض جديدة تنزج الفكاهة بالجد ن وقد اختار شاعرنا لقصيدته مطلع قصيدة عمر بن الوردى الشهيرة :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل واترك اللهو وجانب من هزل

وهو يخاطب بهذه القصيدة المتحدثين باسم الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة العربية ، وبصفة خاصة في مصر ، ويبدو من تاريخ نشر القصيدة أنها كانت خلال الحملة الإعلامية الضخمة التي شنتها الدول الغربية على مصر في أعقاب قرار تأميم شركة قناة السويس المصرية في ٢٦ يوليو ١٩٥٦م تلك الحملة الشرسة التي انتهت بعدوان ثلاثي عسكري مباشر من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل على مدينة بورسعيد ، ودعم سياسي أمريكي . وقد بدأت عمليات العدوان في يوم

٢٩ / ١٠ / ١٩٥٦ م - نفس اليوم الذي نشرت فيه القصيدة - في مجلة (الاثنين
والدنيا)

والنموذج الذي يخاطبه شاعرنا هو نموذج ذلك الرجل السياسي المنافق
حمال الأوجه الذي يحذو حذو أمريكا في غموض سياستها آنذاك فهو يستحلفه
بجورج واشنطن الرئيس الأمريكي الأسبق الذي يعتبره الأمريكيون وحلفاءهم مثلاً
للبطل الوطني المعطاء . يستحلف شاعرنا النموذج الذي يخاطبه بهذا البطل الشهير
ويسأله أن يكون واضحاً صريحاً حاسماً قاطعاً في تصريحاته وأقواله ، وألا يتذرع
بالدبلوماسية ويتخذ منها وسيلة للمراوغة والتضليل ، يقول حمام :

أيا الناطق عن أمريكية	أنت قد هددت عقلي بالخلل
أنا في عرض وشنطون الذي	هو في تاريخكم نعم البطل
قل لنا قولاً صريحاً مرة	أنت حيرت شعوباً ودول
كل حين لك لون يافتى	كل يوم لك رأي مرتجل
أعلينا أنت ؟ أم أنت لنا ؟	أسروراً تتمنى أم زعل ؟

ويبدو كما قلنا أن شاعرنا كان يخاطب في هذه القصيدة مسؤولاً معيناً
أو متحدثاً صحفياً أو صديقاً كان يدافع عن سياسات الغرب الذي كان آنذاك في
أوج تشدده ضد مصر إثر قرار عبد الناصر تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ م
وهذا تفسره الأبيات التالية فهو فيها يسأل صاحبه هل أنت مع جمال عبد الناصر

أومع إيدن - وزير خارجية بريطانيا آنذاك والذي كان يقود حملة عدوان الغرب
ضد مصر - :

أجمالاً ترتضي - أم إيدناً؟	أأماناً تتوخي أم وجل؟
أنت يا أستاذ تعطي زغدة	بينما تغمر وجهي بالقبل
أنت يا شيخ نشاط وكسل	أنت - والله - نجاح وفشل
أنت خصم وأخ ، أنت ضنى	وشفاء ، أنت يأس وأمل
أنت أعددت لنا مائدة	قد مزجت المش فيها بالعسل
أنت في بعض الليالي قمر	يرسل البشري وفي البعض زحل
أسرة المقتول قد واسيتها	ثم أقبلت تواسي مَنْ قتل
تكره الغدر من الذئب وقد	تدفع الذئب إلى نهش الحمل
تعظ الحشاش وعظاً زاجراً	وتغذيه بأنواع السُّطل

وهكذا يرسم لنا شاعرنا صورة مهجوه المنافق ذي الوجهين المتردد فيقدمه
إلينا صورة لتذبذب الإنسان بين الشيء وضده ، فهو بذلك صورة لإنسان ممسوخ
النفس تجتمع فيه النقائص ويختتم شاعرنا قصيدته بقوله إن صاحبه يصلح قصة
لفيلم سينمائي هازل ، كما تصلح موضوعاً للفن بوجه عام :

تمدح الشيء وتهجوه معاً	تصف القط بأوصاف الحمَل
أنت موضوع لفيلمٍ مضحك	ولو صفٍ ، ولشعرٍ ، وزجل

وأخيراً ينصح شاعرنا صديقه أن يتخذ لنفسه منهجاً واضحاً أياً كان ذلك المنهج ، فالمهم فيه أن يكون واضحاً لمن يراه ومريحاً لمن يتعامل معه :

كن صديقاً ، أو عدوً واضحاً كن صريحاً وأرحناً يا رجل !!

وبعد حياة المعاناة التي عاشها حمام تعرف في أواخر حياته بالسري السعودي الشيخ محمد مسرور الصبان الذي أعجب به وقربه إليه كما يقول طاهر أبو فاشا - رحمه الله - ، ووفر له عملاً كريماً في السعودية ، ثم غادرها بعد قليل إلى الكويت كما يظهر من قصيدته التي يقول فيها :

إلى الكويت أشد الرحل مغترباً وما أزال غريب الدار مرتحلاً
نأى بي الرزق عن أهلي وعن ولدي مستسلماً لقضاء الله ممتثلاً

ولم تطل إقامته بالكويت أكثر من عام ونصف حتى لقي ربه بالكويت في الثالث والعشرين من مارس سنة ١٩٦٤ م . فرحم الله شاعرنا حماماً بقدر ما رُوِّح عن محبيه وجلسائه وقراءه بما أفاء الله عليه من روح فكهة وخفة ظل .

قصائد مصطفى حمام

فى مجلة الاثنىن والدنىا عدد ١١٦٤ بتارىخ ١٠/١٠/١٩٥٦ يقول فى قصيدة

بعنوان "يا مجلس الأمن.. إلى أعضاء عصاة" المنتفعين:

هل الحياء انتهى، والى اختشوا ماتوا	قل للخواجات عيب يا خواجات
عنه النظاكة جداً والشياكات	يا أيها المستر الفخم الذى عرفت
تفوح من خده الحلو الكولونيات	وأنت أيها المسيو، وأعرفه
وقال قائلهم أنا فتوات!!	ما للنواعم قد زالت نعومتها؟
هل البرانيط بعد اليوم لاسات؟!	ما للبرانيط طارت عن رؤسهمو؟
فما لأيديهمو إلا المنشات	هذى المدافع فى أيديهمو عجب
أو بوكراً فيه توضيت وبلفات	أو الكتاشين كونكانا تكنكنه ما
فهم جسوم طريات دليكات	كانت الحرب يوماً من صنائعهم
وليلهم كله خمروستات	نهارهم كله هلس ومسخرة
لهم على جيشنا كروغارات	سل عن بريطانيا قوما قبارصة
وكل يوم أذيات وعلقات	نسف وقتل وترويع وبهدلة
بها فمصر- رجولات وصبوات	سل عن بريطانيا مصرأً وما صنعت
شعب له فى كتاب المجد أيات	سل الثمانين ألفاً، كيف أخرجهم
له من الحرق والتقتيل إفلات	سل الجزائر عن جيش الفرنسى وهل

وقل لسلوين أو بينو، إذا خطبا
قتنا ملكنا. من جاء يغصبها
والله إنك عجان ولتات
تنزل على رأسه منا المصيبات
يا مجلس الأمن، لا نسمع لقولهمو
ما هذه دول بل هم عصابت

وفي عدد ١١٦٥ بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٩٥٦ يقول في قصيدة بعنوان " لا حرب "

لا حرب حول قوتنا.. لا معمعة
لا جيش، لا أسطول، لا طيارة
انشال وانهد الفتوة "إبدن"
وكانها التأميم حمى سخنة
أو عقرب حمراء طارت نحوه
أو بعبع من مصر- أرعش جسمه
فانساب محموماً و حار دليله
لا صوت يزعج سمعنا، ي قعقعة
لا شىء إلا دوشة أو جعجعة
ورمى جاكتته وألقى القبعة
رفعت حرارته وهزت مضجعه
ثم اختفت في فرشته كى تلدعه
كالطفل، إن الطفل يخشى بعبعه
ما بين حمقته وبين المرقعة